أسس تفسيرالنص القرآني عندالسيد السبزواري

في ضوء تفسيره

(مواهب الرحمن في تفسير القرآن)

حسن كاظم أسد ♦

المقدمة :

تأسست مدرسة النجف الأشرف على يد الشيخ أبي جعفر الطوسي (ت٤٦٠ هـ) في العصر العباسي الثاني، وهو من أساطين المفسرين، ولا غرو أن تبتنى هذه المدرسة على مدرسة الكوفة التي مهدت لبناء الأسس التفسيرية على يد وصي خاتم الأنبياء عليهما صلوات الله، إذ امتد ذلك الشعاع المنير إلى حواضر عربية أخرى[١]. وهذا لا يتنافي مع كون الرسول الأكرم ﷺ هو المفسر الأول، إذ إن التفسير كان في مرحلة التلقي، وإنما تبلورت المرحلة التأسيسية لعلم التفسير على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٢]، بعد أن قبض الرسول الأكرم ﷺ وصارت الحاجة ملحة لتطوير العلوم الإسلامية، ثم تحركت عجلة الاجتهاد في عصر التابعين وما بعده وارتبط ذلك بالواقع المعاش وكانت عامة بصورة تعيش أزمة المخاض على صعيد المحور البنيوي الذاتي لتطوير حركة التنظير المنهجي للعلوم الإسلامية لمواكبة الواقع العملي والتطبيقي نتيجة التحولات الجوهرية على مستوى البنى الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وذلك لجعل معايير وضوابط لتلك التطبيقات وتوظيفاتها، فتبلور محور يمحص النظر في العلاقات المتعددة بين العلوم الإسلامية وتوظيفها، وكان علم التفسير من السعة ما يمكنه أن يكون ساحة تتمثل فيها صورة للتكامل بين العلوم الإسلامية، ومع أن التفسير قديم النشأة، وقد أعطى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الخطوط العامة لأسسه، ولكن لم تكن المبادئ تضبط في مدون خاص ليبرز بين غيره من العلوم له مبادؤه الخاصة وضوابطه الحاكمة على الأداء التفسيري، وحيث لا يمكن الجزم بحصر دواعي ميول المفسر بميول مذهبية معينة أو دواعي اجتهادية استند إليها،

♦ مدرس دكتور في كلية التربية / جامعة ميسان .

مع احتمال بعض الآيات لأكثر من معنى[٣]، ولم يتمحور التنظير لقواعد خاصة بالتفسير في مدونٍ خاصٍ إلا في غرة القرن السادس الهجري وذلك على يد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) كمقدمة لكتابه "جامع التفاسير"، (وكان ذلك أول الإرهاصات في تدوين الأسس المنهجية لتفسير النص القرآني، ثم تلتها عدة محاولات لم تنهض إلى المستوى التنظيري الذي تتطلبه أهمية التفسير وقدسية مادته، إذ انتظم جملة وافرة من مبادئ هذه الأسس، وقد بنى عليها الكثير من القواعد المعززة بالشواهد في تفسيره، مطبقاً كلياتها على جزئيات عمله كمفسر)[٤]، ثم يأتي بعده سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت٧١٦هـ) في كتابه الإكسير في علم التفسير، عرض فيه لبيان جملة من المبادئ المهمة للتفسير، إلا أنه أولى المباحث البلاغية جلّ اهتمامه، وذلك أنهم استشعروا الحاجة إلى ذلك، قال الطوفي: (فإنه لم يزلْ يتلجلجُ في صدري إشكال علم التفسير، وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أر أحدًا منهم كشفه فيما ألفه، ولا نحاه فيما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق، الناكبةُ عن جمرِ الطريق؛ لوضع قانونٍ يعوَّلُ عليه، ويصار في هذا الفنِّ إليه، فوضعت لذلك صدرَ هذا الكتاب، مُرْدِفًا له بقواعدَ نافعةٍ في علم الكتابِ، وسميتُه الإكسير في قواعد علم التفسير، فمن ألفَ على هذا الوضع تفسيرًا، صار في هذا العلمِ أوَّلاً وإن كان أخيرًا، ولم أضع هذا القانون لمن يجمدُ عند الأقوال، ويصمدُ لكلِّ من أطلق لسانَه وقال، بل وضعته لمن لا يغترُّ بالمحال، وعرف الرجالَ بالحقِّ، لا الحقَّ بالرجال)[٥].

ثم انتظمت كتب علوم القرآن جملة كثيرة من المبادئ العامة للتفسير كالبرهان للزركشي (ت٧٩١هـ)، والإتقان للسيوطي (ت٩١١هـ)، فضلا عما أودع المفسرون من هذه المبادئ في مطاوي مباحثهم التفسيرية، إلا أن هذه المبادئ لا زالت بحاجة إلى جهود كبيرة لتلتئم في مدونات مستقلة ناضجة.

ولم تزل هذه الأسس زمن تفسير السيد السبزواري"قدس سره" تذكر في مقدمات التفسير، ولذا نجده قد ذكرها باقتضاب في مقدمة تفسيره، ولكن هناك من المفسرين من لم ينضبط عمله على وفق ما يشير إليه من الأسس في المقدمة. وقد جاء هذه البحث ليسلط الضوء على هذه الناحية في "مواهب الرحمن"، ولذا اقتضى أن يكون على النحو الآتي:

الأول: التعريف بالأسس وكتاب المواهب

أ- التعريف بالأسس، ونبذة عن تأريخ الأسس التفسيرية عند الإمامية.

ب- التعريف بكتاب مواهب الرحمن.

جـ- التعريف بالسيد السبزواري "قدس".

الثاني : الأسس التفسيرية التي أشار إليها في المقدمة، ومن جملتها:

أ- الدراسات اللغوية.

ب- تفسير القرآن بالقرآن.

جـ- تفسير القرآن بالسنة.

د- الرجوع إلى المحكم في تفسير المتشابه.

هـ- الموضوعية والتجرد.

الثالث : شواهد تفسيرية على الأسس في كتاب مواهب الرحمن.

تناولت بعض الموارد التي اعتمدها السبزواري "قدس" في مطاوي أدائه التفسيري،خاتمة البحث ،مصادر ومراجع .

المبحث الأول: التعريف بالأسس وكتاب المواهب :[

أ- التعريف بالأسس، ونبذة عن تأريخ الأسس التفسيرية عند الإمامية :

الأسس لغة : جمع أساس، و(الأساس لأصل البناء، وجمع الأساس أسس)[٦]، وهذه المادة من الهمزة والسين تدل على الأصل والشيء الوطيد الثابت[٧]، فالأس: أصل البناء، وكذلك الأساس، والأسس مقصور منه. وقد أسست البناء تأسيساً. وأسّ البناء يؤسه أساً، وأسسه تأسيسا، وأسست داراً إذا بنيت حدودها ورفعت من قواعدها[٨]، فالأس ما يبتنى عليه.

فالأسس لغة ما يبتنى عليه الشيء بالجملة، وهذا يصدق على الأمور الحسية والمعنوية، فهي في كل شيء بحسبه[٩]، ومنه قوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[١١]، وفي هاتين الآيتين شاهد على صدق الأساس على الأمر الحسي و الأمر المعنوي، فالبناء على التقوى معنوي، والمشبه به وهو البناء على جرف هارٍ أمر حسي. وفي كلا الحالين يعتمد عليه البناء إذ (على قدر الأساس يكون البناء)[١٢]، وهو متقدّم عليه زمناً ورتبة، ولذا (يقال الأساس أولا ثم البناء) [١٣].

الأسس اصطلاحاً :

قلما يطلق على ضوابط التفسير مصطلح الأسس بقدر ما أطلق عليها: "أصول التفسير" أو "قواعد التفسير"، مع أنه كعلم مستقل لا زال في طور جمع الشتات لتضمه المدونات، كما أن كلمة "أسس" وإن أطلقت في غير هذا المورد إلا أنها لم تحظ بتعريف اصطلاحي بعد الإضافة والتركيب، فلا يكاد يجد

الباحث تعريفاً اصطلاحياً للأسس، ولعل مرجع ذلك يعود للاكتفاء بالمعنى الدلالي اللغوي، الذي يطابق المعنى الاصطلاحي أحيانا، إلا أنّ البحث يرى ذلك غير كافٍ، لأن المعنى اللغوي عام، وأن الاكتفاء بالمعنى العام أنتج التداخل في الدلالة بين الأسس وبين مصطلحي القواعد والأصول الذين استهلكا في علوم الشريعة من شدة الابتذال، فوقع الخلط في الدلالة لدى الاستعمال.

فيمكن القول بأن الأسس: (هي مجموع ما تتقوم به الأرضية التي تبتنى عليها أي قاعدة من الأمور الحسية والمعنوية)[١٤]. لتشمل أسس المنظومة التفسيرية وغيرها، فإذا أردنا تخصيصها بالتفسير؛ قلنا: مجموع ما تتقوم به العملية التفسيرية أو الأداء التفسيري بحيث تبتنى عليها أي قاعدة أصيلة في فهم المراد من الخطاب القرآني. إذ إن الأسس المختصة بالتفسير القرآني تعني الضوابط التي لا بد للمفسر أن يأخذه بنظر الاعتبار الأول، حال أدائه التفسيري، من خلال محاولاته التأصيلة لمفهوم يريد تأصيله ليكون مصطلحا، أو ظاهرة يريد التعبير عنها، بل حتى في نقده لتفسير غيره مما يرى فيه اختلال ضابطة ما، أو لدى تبني تفسير معين لنص خاص.

أما تأريخ الأسس التفسيرية عند الإمامية، فيمكن تلمسه في قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لابن عباس(ت٦٩هـ) لدى إرساله في محاججة الخوارج: (إن القرآن حمال ذو وجوه) [١٥]، وذو وجوه: أي ذو معانٍ عديدة[١٦]، وهذا لا شك يستدعي التدبّر وتوخي الدقة لدى العملية التفسيرية لمن له الأهلية لفهم الخطاب الإلهي، فالخوض في هذا المضمار والإبحار في هذه الوجوه دون مركب ومعرفة لتسييره أو التقصير في تدبره يوقع الإنسان في المهلكة، كما وقع لبعض المفسرين، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام(ت١٤٨هـ): بأنهم (ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه، وهم يرونه أنه المحكم، واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الآية، وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام والى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلّوا وأضلّوا) [١٧]

وفي ذلك خطوط عريضة لرسم حدود ما يستلزمه التفسير من المقدمات والأسس والآليات، فإن (من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام والمحكم من المتشابه، والرُّخص من العزائم والمكي من المدني، وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة، وما فيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير، والمبين والعميق، والظاهر والباطن والابتداء والانتهاء، والسؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجاري فيه، والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، والمؤكد منه، والمفصّل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي

هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ، والمحمول على ماقبله، وعلى ما بعده، فليس بعالم بالقرآن، ولا هو من أهله، ومتى ما ادّعى معرفة هذه الأقسام مدّع بغير دليل، فهو كاذب مرتاب، مفتر على الله الكذب ورسوله، ومأواه جهنم وبئس المصير)[١٨]، وهذا من الملاحظ المهمة في علوم القرآن وأسس التفسير.

وقد أكثر الباحثون في عزو تدوين أسس التفسير إلى ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٨هـ) في "مقدمة في أصول التفسير"، والحق والإنصاف يقتضي القول بأن أول الإرهاصات في تدوين الأسس المنهجية وضعها الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، كمقدمة لكتابه "جامع التفاسير"، من أجل ترصين الأداء التفسيري وتأصيل الأسس المعيارية الحاكمة عليها، ولا يبعد أن يكون ابن تيمية وغيره قد استقى جل هذه الأسس من مقدمة الراغب، ثم توالت الجهود لدى الفريقين.

وعلى ذلك يمكن اعتبار المدرسة الإمامية هي المؤصلة لأسس تفسير النص القرآني تبعاً لأئمتهم عليهم السلام، فهم المؤصلون الحقيقيون.

التعريف بكتاب مواهب الرحمن :

يتعرف على الجهد العلمي في المؤلفات من خلال المقدمة التي يضعها الكاتب، ثم ينظر إلى ثنايا كتابه للوقوف على الشواهد المشيرة إلى منهجيته، ومدى انضباط أدائه العلمي، والتعرف على الثمرات والنتائج التي تظهر من خلال ذلك، فنرى السيد السبزواري "قدس سره" قد أشار في مقدمة تفسيره "مواهب الرحمن" إلى أمور عدّة بيّن فيها الغاية من القرآن وهدفه، إذ إن معرفة الهدف والغاية لكل أمر، تمكن من التعرف على محتواه، وبالأخص القرآن الكريم، وهذا أمر واضح لا لبس فيه، فكل من أراد أن يعرف غرض المتكلم ينبغي أن يعرف هدفه من الكلام، ثم تحديد المخاطب بالقرآن وشمولية القرآن بما يمكن أن نعبر عنه بعالمية الدلالة، التي تستلزم إمكان معرفة القرآن والتدبّر فيه، فهدف القرآن هداية للناس عامة، وللمؤمنين خاصة. ويعني بالناس جميعهم من غير أي تخصيص أو تقييد، إلا أنَّ المتقين هم الذين يهتدون بتقبلهم للهداية، لأن القرآن يتطلب من كان له قلب مهيئ أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم إن السيد السبزواري "قدس سره" قد ألمع باختصار إلى شروط فهم القرآن وتفسيره وما يمت بذلك من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، إذ إن تلك الشروط عوامل رئيسية لفهم الخطاب القرآني، كمعرفة الأدب العربي "نحو وصرف وبلاغة..." والاعتماد على أدلة من القرآن نفسه، فهي التي تعين في معرفة المعاني، والرجوع إلى المحكمات في تفسير المتشابهات. وهناك أمر مهم لفت إليه السيد السبزواري

"قدس سره" من خلال الإشارة إلى لا بدية الابتعاد عن التأثير بالأجواء المحيطة بالمفسر داخلا وخارجاً، فينبغي أن يكون متجرداً ليصل إلى المعنى المراد.

وقد أشار "قدس سره" إلى أمر يخص تفسيره من خلال تطلعاته الفكرية، إذ قال: (فقد شملتني عنايته تعالى لتفسير هذا الكتاب العظيم الذي عجزت العقول عن درك كنهه.. ففي كل سورة منه بحار من المعارف، ويتجلى من كل أية منه أنوار من الحقائق... وقد ظهر لي بعد مراجعتي لجملة من التفاسير أنّه فسّر كل صنف من العلماء القرآن بما هو المأنوس عندهم، فالفلاسفة و المتكلمون فسّروه بمذهبهم من الآراء الفلسفية والكلامية، والعرفاء والصوفية على طريقتهم، والفقهاء همهم تفسير الآيات الواردة في الأحكام، والمحدثون فسّروه بخصوص ما ورد من ألسنة الشريفة في الآيات كما أن الأدباء كان منهجهم الاهتمام بجهاته الأدبية دون غيرها، والعجب أنه كلما كثر في هذا الوحي المبين والنور العظيم من هذه البيانات والتفاسير، فهو على كرسي رفعته ويزداد على مر العصر تلألؤاً وجلالاً)[١٩].

ولم يغفل الإشارة إلى الابتعاد عن التفسير بالرأي، ليكون استظهاره المعاني من الآيات المباركة بقرائن معتبرة، فإن هذا الحديث الشريف لا يشمله، إذ التفسير بالرأي غير الاستظهار من الآيات المباركة بقرائن وترك التعرض للتفاسير النادرة، والآراء المزيفة والفروض التي تتغير بمرور الزمان.

هذا ما يفاد من المقدمة من توضيح خطته البحثية ومنهجه وأسلوبه في التفسير، ولدى استعراض الكتاب يجد المتتبع أنه يختص بجملة المزايا حيث أنه لم يكثر من عرض الآراء للمفسرين بكل تفاصيلها، بل يكتفي في مواضع الحاجة بما تم طرحه من فوائد علمية وأدلتهم على آرائهم بعيداً عن الخوض في التفاصيل، مقدما ما أثر عن أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم في مقام كشف المراد الخفي وتحديد المعاني من بين مجملاتها.

وقد كان "قدس سره" يبدأ التفسير بذكر اسم السورة وبيان المكي والمدني ثم يذكر عدد آياتها، ثم مضمونها ومفرداتها، ثم يبين المباحث التي تتعلق بها. وقد يقسم الأداء التفسيري إلى نقاط، يلحظ فيها الاهتمام بالمنهج البياني والإشارة إلى المستوى الأدبي، والقضايا الصرفية والنحو والبلاغة والقراءات.

ولم يتعرض لبيان النظم بين الآيات غالباً، وذلك لما قدّمه من قوله بأن (الجامع القريب في جميعها موجود، وهو تكميل النفس، أو الهداية، ومع وجوده لا وجه لذكر النظم بين الآيات، لأن الغرض القريب بنفسه هو الجامع والروابط بين الآيات، كما أني لم أهتم بذكر شأن النزول غالباً، لأن الآيات المباركة كليات تنطبق على مصاديقها في جميع الأزمنة، فلا وجه لتخصيصها بزمان النزول أو بفرد دون فرد آخر، وكذلك جميع الروايات الواردة عن الأئمة الهداة في بيان بعض المصاديق لها، فهو ليس من باب

التخصيص؛ بل من باب التطبيق الكلي على الفرد)[٢٠]. وقد يتعرض للمسائل الكلامية والاعتقادية ويناقش الأدلة ويعرض أدلته من منطلق عقيدته، كما أنه يذكر المطالب العرفانية.

التعريف بالسيد السبزواري "قدس" :

السيد السبزواري علم من الأعلام السامقة الخفاقة في سماء العلم والفضيلة، وهو السيد عبد الأعلى بن السيد علي رضا بن السيد عبد العلي بن السيد عبد الغني بن السيد محمد الموسوي السبزواري، ينتهي نسبه الشريف إلى السيد محمد العابد بن الإمام موسى بن جعفر الكاظم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولد رضوان الله تعالى عليه في يوم عيد الغدير الأغرّ الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ الموافق لعام ١٩١٠م تقريبًا في مدينة سبزوار بإيران وفي أسرة معروفة بالعلم والفضيلة يتوجها شرف النسب العظيم للرسول الكريم وآل بيته الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فأبوه العلامة المقدس السيد علي رضا من كبار علماء سبزوار والذين تصدّوا للشؤون الدينية فيها وقضاء حوائج المؤمنين، وعمه السيد عبد الله عالم جليل القدر وخطيب متكلم، وأخوه آية الله السيد فخر الدين السبزواري.

بدأ "قدس سره" دراساته الحوزوية في سن مبكرة فأنهى مقدماته العلمية في بلدته سبزوار ثم سافر بصحبة والده إلى مشهد المقدسة ليكمل دراسته هناك وعمره حينها لم يتجاوز الرابعة عشر، ثم انتقل إلى عاصمة العلم النجف الأشرف، فنزل بها، وحضر دروس الأعلام في الفقه والأصول والأخلاق. ثم حاز على رتبة الاجتهاد واستقل بحلقات درسه في المسجد الذي كان يقيم فيه الجماعة بمحلة الحويش في النجف الأشرف ، وقد ساهم في صناعة العديد من فضلاء الحوزة وتربى على يديه الكريمتين جيلٌ من العلماء البارزين.

له من الأبناء آية الله السيد محمد السبزواري رضوان الله تعالى عليه (ت١٤١٤هـ)، والعلامة الحجة السيد علي السبزواري وهو من الأساتذة المبرزين في الحوزة العلمية في النجف الأشرف حالياً. والعلامة السيد حسين السبزواري وهو مقيم في مدينة مشهد المقدسة.

ومن أساتيذه:

١- الشيخ محمد حسين الغروي الأصفهاني المعروف بالكمباني.

٢- السيد أبو الحسن الأصفهاني.

٣- الشيخ محمد حسين الغروي النائيني.

٤- الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء.

٥- السيد علي القاضي الطباطبائي.

٦- الشيخ ضياء الدين العراقي.

٧- الشيخ محمد جواد البلاغي.

٨- الشيخ أبو الحسن المشكيني.

٩- الشيخ عبدالله المامقاني.

وغيرهم من الأعلام.

من أبرز تلامذته:

١- السيد جمال الدين الحسيني الاسترابادي.

٢- السيد عبد العزيز الطباطبائي اليزدي.

٣- السيد أبو الحسن مجتهد المزارعي.

٤- الشيخ حسين الراستي الكاشاني.

٥- السيد علي السبزواري.

٦- الشيخ محمد تقي الجعفري.

٧- الشيخ نور الله الواعظي.

٨- السيد علاء الدين الغريفي.

٩- الشيخ قربان علي الكابلي.

ومن تراثه العلمي:

١- إفاضة الباري في نقض ما كتبه الحكيم السبزواري.

٢- مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام (ويقع في ٣٠ مجلدًا).

٣- مباحث مهمة فيما تحتاج إليه الأمة.

٤- مواهب الرحمن في تفسير القرآن (ويقع في ٣٠ جزءًا). وهذا التفسير يعد من التفاسير الشاملة لجميع الآيات القرآنية، وجامعاً للأبحاث الأدبية واللغوية والبلاغية والفقهية والكلامية بعبارات سهلة صافية، وكلمات رائعة شيقة، جمع فيه المؤلف رضوان الله تعالى عليه بين المأثور وما اتفق عليه الجميع من التفسير. ويقع هذا التفسير في ٣٠ مجلداً لم تكتمل طباعة الأجزاء الأخيرة.

٥- رفض الفضول في علم الأصول.

٦- تهذيب الأصول (مجلدان).

٧- حاشية على تفسير الصافي.

٨- حاشية على العروة الوثقى.

٩- حاشية على جواهر الكلام.

١٠- حاشية على بحار الأنوار.

١١- جامع الأحكام الشرعية.

١٢- حاشية وسيلة النجاة.

١٣- منهاج الصالحين (رسالة عملية).

١٤- اختلاف الحديث.

١٥- لباب المعارف.

١٦- فروع الدين.

١٧- مناسك الحج.

١٨- معين الفقيه.

١٩- التقية.

وفاته:

بعد مدة وجيزة من توليه مهام المرجعية، وذلك بعد وفاة زعيم الحوزة العلمية السيد أبي القاسم الخوئي رضوان الله تعالى عليه في ٨ من شهر صفر سنة ١٤١٣ الموافق ١٩٩٢/٨/٨م؛ رحل إلى جوار ربه، وذلك في ٢٨ من شهر صفر سنة ١٤١٤هـ بمدينة النجف، وشيع جثمانه من حرم أمير المؤمنين ومولى المتقين ودفن بجوار المسجد الذي كان يقيم فيه صلاته ويلقي فيه بحثه ودرسه.

المبحث الثاني: الأسس التفسيرية التي أشار إليها في المقدمة :

أشار السيد السبزواري "قدس سره" إلى جملة من الأسس التي يُعتمد عليها في استكشاف المراد من النص القرآني المجيد، ومن جملتها:

أ- الدراسات اللغوية.

اللغة لا يمكن الاستغناء عنها في أي منهج من مناهج التفسير، فهي من أوليات الأداء التفسيري، بل يعتمد عليها حتى الفهم الأولي للقرآن، ولهذا كان السلف يحضون على تعلم اللغة العربية كثيراً، لأنها لغة القرآن، ولا يعرف القرآن إلا بمعرفة لغته، لأنه نزل عربياً مبيناً، قال تبارك وتعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾[٢١]، إلى غير ذلك من الآيات[٢٢]. ولذا أولاه السيد "قدس سره أهمية في المقدمة مشيراً إلى بعض ضوابط توظيف المباحث النحوية والإفادة من الصيّغ الصرفية، وملاحظة أثر دلالة النص حتى من خلال الدلالة الالتزامية أو المعاني الخفية من في ضوء رمزيتها، ولكن لا يتعدّى كونه استظهارا، من خلال (معرفة الهدف والغاية)، كما أشار إلى ملاحظ تتلخَّص في الأمور الآتية: معرفة الأدب العربي، وينبغي معرفة علم الصرف والنحو، وعلوم البلاغة، وعلم اللغة وفقه اللغة، معرفة إجماليّة[٢٣]

ب- تفسير القرآن بالقرآن.

أشار "قدس سره" إلى أهمية تفسير القرآن بالقرآن وضوابطه تحت عنوان: "الاعتماد على أدلّة من نفس القرآن"، إذ قال: (وقد فسر نفسه بنفسه، لأنه تبيان كل شيء، فإذا كان كذلك فأولى أن يكون تبيانا لنفسه)[٢٤].

ج - تفسير القرآن بالسنة.

بما أن السنة الشريفة تتمثل بما صح عن النبي "صلى الله عليه وآله" وعن الأئمة من آله عليه السلام، فيرجع المفسر في فهم الخطاب القرآني من خلال ما ورد عنهم، فإنَّ هناك كمّاً كبيراً من الآيات الكريمة غير مفهومة لا من حيث المفهوم والمعنى ولا من حيث المصداق والتطبيق، وليست هناك أيُّة وسيلة عادية يمكننا من خلالها الاطّلاع على تلك الآيات والوصول إلى محتواها الواقعي. والقرآن الكريم بنفسه قد عرَّف لنا الوسيلة ورسم لنا السبيل لفهم تلك الآيات والوصول إلى حقيقتها حيث قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[٢٥]،.... ولذا فهو يقوم بأداءه التفسيري (مستدلا بما ورد من السنة النبوية الشريفة، والمأثور عن آله الذين قرنهم بالكتاب، وجعلهم الأدلاء عليه)[٢٦]

د- الرجوع إلى المحكم في تفسير المتشابه.

ومن الأسس التفسيرية ما عبر الرجوع إلى المحكمات في تفسير المتشابهات..يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٢٧]،...فلا بد أن يميِّز المفسر المتشابهات من المحكمات، حتى لا يقع في الشبهات، وينبغي له أن يُرجع الآيات المتشابهة إلى الآيات المحكمة فهي أم الكتاب. وهذا ما سنلحظه من خلال التتبع في بعض الأمثلة من "مواهب الرحمن".

هـ- الموضوعية والتجرد.

هذه الضابطة نابعة من أسس التفسير التي يعبر عنها بالموضوعية، التي لا بد أن يتحلى بها المفسر لئلا يحيد في تفسيره أو يتعصب لمذهب معين، فالتجرد أمر مهم في استجلاء المراد من الخطاب القرآني، وذلك ما يلحظ عند السبزواري "قدس سره" من التجرّد من الأجواء المحيطة حوله عند الغور في القرآن الكريم، كي يتمكّن من معرفة القرآن بحرِّية كاملة ولا يُحمِّل أفكاره على كلام الله، بعيدا عن التعاطف الانتمائي إلى مدرسة فكرية خاصة.

المبحث الثالث: شواهد تفسيرية على الأسس في تفسير مواهب الرحمن :

لم يغفل السبزواري "قدس" ما أشار إلى أهميته من أسس في المقدمة؛ إذ إنه اعتمدها في مطاوي أدائه التفسيري.

ابتداءً بالموارد الأدبية والدراسات اللغوية التي هي المفتاح الأول لفهم كل نص، فعلوم اللغة تعد من أهم الأدوات التي يوظفها علم التفسير لفهم القرآن الكريم، في حال فقد تفسير معين صادر عن المعصوم عليه السلام. إذ إن النص القرآني عبارة عن بناء لغوي على وفق نظام اللغة ولا يتخلف عنه غالبا، وذلك يعطي للتحليل اللغوي أهميته في الكشف عن المعنى المراد في ذلك النص، فيلجأ المفسر لتحكيم اللغة في إدراك دلالة اللفظ واكتشاف معطياته في المعنى، ومع المباحث التي تنطلق من هذا المنظور في النحو والصرف واللغة من جهة، ومن توظيف الشواهد الأدبية والبيانية من جهة أخرى، ومن الإحاطة بأصناف البلاغة في علمي المعاني والبيان وسواهما، وذلك يقتضي تتبع مباحث متعددة، منها المعنى المعجمي للمفردة، وهذا مما أشار إليه السبزواري "قدس سره" في المقدمة، ونلحظ من تطبيقاته، ما جاء في لفظتي الغضب، فالغضب قال عنه الراغب الأصفهاني في المفردات: (الغضب: ثوران دم القلب و إرادة الانتقام)[٢٨].

وعلى ذلك قرر معنى من بين المعاني التي ذكرها مؤيدا ذلك بما ورد في اللغة وما أشار إليه من روايات، ليعلم أنَّه من خلال ما ذكرناه لا يستنتج بأنَّ اليهود هم المغضوب عليهم فقط بل هم الضالون أيضاً، كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية خصوصاً عند ملاحظة معنى كلمة الضلال في اللغة و الشرع، (فتفسير الأول [المغضوب عليهم] باليهود، والثاني [الضالين] بالنصارى، من باب التطبيق لا التخصيص)[٢٩].

ويلحظ في ذلك مراعاة المفردة المعجمية، وما ورد من الروايات.

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[٣٠]، تحت عنوان: **بحث أدبي**، قال "قدس سره": (الضمير في نوحيه يرجع إلى ذلك في صدر الجملة، كما عن المشهور؛ ويحتمل أن يعود إلى الغيب ليشمل ما قصه عزّ وجلّ سابقاً وغيرها من القصص... وصيغة الاستقبال في نوحيه تدل على استمرار الوحي وعدم انقطاعه)[٣١].

أما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾[٣٢]، قال: (مادة قرية "ق ر ي" تأتي بمعنى الجمع فيصح إطلاقها على كل مجمع إطلاقاً حقيقياً،...أقول وعلى هذا لا داعي للحذف والإضمار كما عليه الأدباء وتبعهم جمع من المفسرين، لأنه مع صحة المعنى الحقيقي لا تصل النوبة إلى المجاز والحذف) [٣٣].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[٣٤]، قال: (الآيات :العلامات والدلالات.... والآيات جمع قلة؛ لكنه يقوم مقام جمع الكثرة؛ ولعل مجيئه لأجل

أن الآيات المحسوسة قليلة في جنب ما خفي منها... والألباب: جمع لب، وهو لغة أهل الحجاز، وأهل نجد يقولون: لبَّ يلب على وزن فرّ يفرّ،.... ولبّ العقل: ما خلص عن شواهب الأوهام مطلقاً)[٣٥].

وذلك تتبع للموارد اللغوية، والصرفية، لما يتأسس من نتائج هذه الدراسة من معاني ودلالات ذكرها عقيب هذا التفصيل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[٣٦]، قال "قدس سره": (بغياً: منصوب؛ إما على أنه مفعول لأجله أو على الحال من الذين، والمراد من الذين أوتوا الكتاب: هم اليهود والنصارى....)[٣٧].

وهذا اهتمام بالحالة الإعرابية للفظ "بغياً"، وعلى الحالين الذين ذكرهما بنى تفسير الآية الكريمة.

ومن الشواهد البلاغية التي تدل على اتباعه ما أسس السبزواري في المقدمة، ما ذكره بعنوان **"الاستعارات والكنايات القرآنية"**: إذ قال: (لا ريب في أن الآيات المباركة مشتملة على الكنايات، التي هي من أهمّ شؤون الفصاحة والبلاغة، ويعدّ ذلك من أدب القرآن، مثل قوله تعالى: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ)[٣٨]، فإنّه كناية عن البراز، وقال تعالى: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ)[٣٩]، فإنّه كناية عن الجماع، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، فهي لا تكون من المتشابهات بل إنّها من المحكمات، فإنّ لها ظهوراً عرفياً ولو بالقرينة في المعنى المراد. وقد أثبتنا في علم الأصول أنّ المدار في المحاورات على الظهورات العرفيّة ولو كانت مجازيّة.

وكذا ما ورد في بعض الأحاديث من أنّ القرآن: "نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة"[٤٠]. (وأمّا اللطائف والإشارات والدقائق، فإنّها وإن كانت منساقة من ظاهر اللفظ بحسب المحاورة، لذا تكون من المحكمات، وإلا فهي من المتشابهات. ومن هنا يظهر الفساد ما ورد عن البعض في إنكار كون الكنايات من المحكمات وأنّها من المتشابهات[٤١].

فنرى كيف أعمل الضوابط البلاغية ليفيد منها خروج الآيات من حد التشابه؛ لتكون من المحكمات.

ومن شواهد اتباع الأسس في تفسير القرآن بالقرآن، وذلك أنه أول الطرق في تفسير القرآن، فهو أصح الطرق في استكشاف المراد في الخطاب الإلهي[٤٢]، وقد أسس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ذلك بقوله: (ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض) [٤٣]. وهذا القول الكريم لسيد الأوصياء عليه السلام، يشير إلى ملحظين في تفسير القرآن للقرآن، وهما تفسير آية لآية، وتفسير آية بشهادة آية، فالأول البيان

الصريح، والثاني البيان الذي يستنبط من ضم المعنيين. ومن هنا يمكن القول بأن "تفسير القرآن بالقرآن" كمصطلح، يتجسد في ملحظين، أولاهما تفسير آية لآية أخرى بلا تكلف من المفسر. فهو بمثابة شرح أو توضيح للمفردة أو الجملة. وأجلى أمثلة ذلك، ما ورد من تفسير الظلم بالشرك، وهو (تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، الظلم في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَلبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[٤٤]، بالشرك من قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤٥]،...)[٤٦]. والآخر وهو من قبيل الشواهد، أو الأشباه والنظائر، فيدخل فيه التفسير الموضوعي، والتفسير التوحيدي، وما يعرض من تقييد المطلق، وتخصيص العام، وأضرابهما، وتتميم القصص، وحل ما يتوهم من اختلافه لأول وهلة، إلى غير ذلك مما احتمله القرآن الكريم من الأساليب الإعجازية. ويتضمن هذا الأخير بيان مفاهيم أخرى في آية من ضم ما ورد في آية أخرى أو آيات أخر، قد تكون سابقة عليها، أو لاحقة لها[٤٧]. كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾[٤٨]، إذ صدر بذكر اليتيم كونه عاجزاً عن أخذ حق نفسه، ثم الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل وذكر أن من أخل بإيفائه من غير قصد منه لذلك لا حرج عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقابا لمن تعمد ذلك[٤٩]. ولكنه توعده بالويل في موضع آخر ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة وذلك في قوله: ﴿وَيْلٌ لِلمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾[٥٠].

وذكره في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا ﴾[٥١]، وفيه أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله وأحسن عاقبة[٥٢]. ففي كل هذه الآيات ذكر حكم لإقامة الوزن أو عدمه.

وقد يكون على نحو حل إشكال متوهم في آية أو أكثر بقرينة ما يرد في غيرها من الآيات. كما في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[٥٣]، فقد يتوهم من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة -أي مفهوم الغاية- في قوله: "حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ"، إنه إذا بلغ اليتيم أشده فلا مانع من تناول ماله بغير التي هي أحسن، وليس ذلك مرادا بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله إن أونس منه الرشد. وقد بينه تعالى في آية أخرى بقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[٥٤]. إذ انحل الإشكال المتوهم من انتهاء غاية الامتناع من تناول مال اليتيم ببلوغه في آية، بما يفاد من آية أخرى من قرينة على المراد فيها[٥٥]. وهذا يرتبط بأحكام شرعية فرعية تتعلق بمخالطة اليتامى. وقد أشار السيد السبزواري "قدس سره" في مقدمة تفسيره لأولوية تفسير القرآن بالقرآن، وقد وظف تفسير القرآن بالقرآن لدى أدائه التفسيري، وعلى ذلك شواهد كثيرة، يختار البحث منها: ما جاء

في تفسير "البعث" من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥٦]، إذ قال: (البعث بمعنى الإثارة، والإرسال، والتوجه، وقد استعملت مادته في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، ويجمع هذه الاستعمالات أحد أمور ثلاثة: أحدها: الإيجاد من العدم إلى عالم الدنيا، كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾[٥٧]، ثانيها: الإحياء بعد الإماتة كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[٥٨]، ثالثها: البعث إلى المقاصد الصحيحة؛ كبعث الرسل، قال تعالى: ﴿ وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾[٥٩]. والمعروف بين المفسرين أن الأول مختص بالله تعالى، ويستعمل الأخيران في غيره أيضاً، لأن بعض أولياء الله تعالى يحيي الموتى، وأما البعث في الحوائج فهو شائع عند الناس. أقول: إن اختصاص الأول بالله تعالى منصوص في قوله عز وجل لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾[٦٠]، إلا أن يقال إنه من تبديل الصورة لا الإيجاد من العدم المحض، والمراد بالبعث هنا المعنى الثاني....)[٦١]، وذلك واضح في تتبع المعنى في آيات أخرى للوقوف على المراد من الآية التي أراد تفسيرها.

أما تفسير القرآن بالسنة فقد اعتمده كثيرا باعتبار أن المعرفة القصوى لن ينالها إلا من خوطب بالقرآن، ليستقي المفسر ما يمكن معرفته لأمثاله من خلال ما رسمه المعصوم، وقد خصص بحثاً روائياً بعد الإفادة التفسيرية العامة من الروايات في العملية التفسيرية، ليؤسس قضية بحسب المقتضى، فقد تكون الرواية مخصوصة بظرف أو شخص أو غير ذلك من اللحاظات، وقد تكون عامة ومورها جاء من باب التطبيق، ليؤسس أن الروايات يمكن الإفادة منها في تخصيص عام أو تقييد مطلق، أو بيان إجمال، وغير ذلك من وظائف السنة الشريفة، بعد النظر في صحة السند وما إلى ذلك من ضوابط، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾[٦٢]، روي أنها نزلت في قريش حين منعوا رسول الله ﷺ دخول مكة، وأفاد السبزواري "قدس سره" من ذلك إطلاق المسجد على مكة، ثم أشار إلى حديث "جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهورا"، ونقل قول الطبرسي "رحمه الله" أنه أفاد منه إرادة جميع الأرض في هذه الآية. ثم علق على ذلك بقوله: (وهذا تنزيل صحيح، لأن كلّ مَن منع مِن طاعة الله تعالى وعبادته بأي وجه كان؛ يدخل في حكم الآية؛ وإن لم يكن داخلا في منطوقها) [٦٣]، ثم أردف ذلك برواية أخرى تفيد بأن الآية نزلت في الروم... وعلق عليه بقوله: (إن صح الحديث يكون أحد موارد التطبيق)[٦٤]، وهكذا يتتبع السبزواري"قدس سره" الموارد الحديثية التي تتعلق بتفسير الآية، مع ملاحظة ما يصح من النصوص الحديثية، ومراعاة التواتر أو الاستفاضة[٦٥].

أما بالنسبة للمحكم والمتشابه فقد يقف المتتبع على ما بذله من جهد لتأسيس القاعدة في الأداء التفسيري من أجل تعرف الموقف في ذلك وما يستدعيه من تفصيل خصوصاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٦٦]، إذ خصص لها مباحث استوعبت قرابة خمسين صفحة[٦٧].

وفي مسألة الموضوعية والتجرد نتلمس بعض الموارد التي اكتفى فيها بالتعبير بـ "ذكر المفسرون" أو "بعض المفسرين، ثم يبين الراجح وفق الأسس والقواعد المبتنية عليها، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾[٦٨]، قال: (والشهداء: جمع الشهيد، بمعنى المقتول في سبيل الله تعالى، فيشمل شهداء بدر وأحد وسائر غزوات الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) المباركة. وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بالاتّخاذ لكمال العناية لهم والتكريم بهم، فقد أحبّهم وارتضاهم فاتّخذهم شهداء، كما في قوله تعالى: (وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)[٦٩]...)[٧٠]

ثم أشار إلى بعض المفسرين دون تسمية أحد، وقد يكون التفسير الذي ذهبوا إليه ناتج عن عقيدتهم دون إخضاع التفسير للقاعدة، ثم يفند تفسيرهم، ويحكّم القواعد الموضوعية، إذ قال: (وذكر بعض المفسّرين أنّ المراد بالشهداء في المقام شهداء الأعمال، لعدم معهوديّة استعمال هذا اللفظ جمعاً للشهيد بمعنى المقتول في القرآن الكريم، ولأنّ الاتّخاذ لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين، ولأنّ قوله تعالى: (لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) قرينة على أنّ المراد بالشهداء هم شهداء الأعمال، أو مَن يصلح للشهادة على الأمم يوم الحساب)[٧١]. وهذا الرأي التفسيري يظهر من السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤١٢هـ) في الميزان، إذ قال: (وأما قوله ويتخذ منكم شهداء فالشهداء شهداء الأعمال وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يعهد استعماله في القرآن وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلامية)[٧٢].

وهذا من السيد السبزواري في غاية الموضوعية والتجرد؛ إذ لم يقع تحت طائل العاطفة، وفي غاية التأدب إذ لم يسم أحدا، بل حكّم القواعد بالرد العلمي الموضوعي قائلا: **(وفيه أوّلاً**: أنّه خلاف سياق مثل هذه الآيات الشريفة، إذ لا ربط لقبول قول الشهداء في عِداد بيان خصوصيّات القتال والجهاد في سبيله.

وثانياً: إذا كانوا من الشهداء في الحقّ يكونون من الشهداء على الأعمال أيضاً، لما ذكرنا سابقاً من الشهداء في سبيل الله لهم مقام الشهادة على الأعمال والشفاعة، لما ابتلوا بالصبر والإيثار ببذل النفس.

وثالثاً: إنّ قوله: (لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) تفصيل بين الشهداء في الحقّ، فهم ممّن أحبّهم الله تعالى واتّخذهم وارتضاهم، وبين مَن قتل في غير الحقّ.

ورابعاً:إنّ استعمال الشهداء بمعنى المقتول في المعركة مطابق للقواعد العربية الفصيحة، فلا محذور في وروده في القرآن الكريم، فليكن المقام من ذلك)[٧٣]. وهذا لم يكن بدعاً إذ مال إليه جملة من المفسرين[٧٤].

وما تقدم من الشواهد إنما هو قطرة من بحر الشواهد التي يقف عليها المتتبع لمواهب الرحمن، من استخدام الأسس التفسيرية والتي أشار إليها السيد السبزواري "قدس سره" مختصرا في مقدمة كتابه التفسيري لضبط الأداء التفسيري وتأصيله، لأن التفسير- زمن الغيبة- يكون كأي علم يحتاج إلى أسس منهجية يقوم عليها، وبإحكام تلك الأسس والسير على وفقها تتضح معالم العملية التفسيرية تتفق والحراك الفكري الذي يهدف إلى الوصول إلى نتائج تفسيرية مقبولة، تكون هي القصوى من حيث ملامسة الحقيقة أو مقاربتها في فهم الخطاب الإلهي في القرآن الكريم.

الخاتمة :

إن أسس التفسير مسألة ضرورية من حيث التأصيل والمستوى الأدائي للتفسير، إذ إنها تمثل المنظومة التفسيرية، بما تعني من مجموع ما تتقوم به العملية التفسيرية أو الأداء التفسيري بحيث تبتنى عليها أي قاعدة أصيلة في فهم المراد من الخطاب القرآني. فالأسس المختصة بالتفسير القرآني تعني الضوابط التي لا بد للمفسر أن يأخذه بنظر الاعتبار الأول، حال أدائه التفسيري، من خلال محاولاته التأصيله لمفهوم يريد تأصيله ليكون مصطلحا، أو ظاهرة يريد التعبير عنها، بل حتى في نقده لتفسير غيره مما يرى فيه اختلال ضابطة ما، أو لدى تبني تفسير معين لنص خاص. ويعود تأريخ الأسس التفسيرية إلى ما رسمه أئمة الهدى المعصومون الذين هم الامتداد الصحيح للنبي "صلوات الله عليه وعليهم أجمعين" ويلحظ ذلك من خلال ما أثر عنهم ابتداءً بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأولاده المعصومين عليهم السلام، وقد كان السيد السبزواري"قدس سره" من علماء هذه الأئمة المهتدين بأنوار أهل البيت عليهم السلام، فهو "قدس سره" قد اتصل بهم نسباً وسبباً، فنسبه الطاهر يرجع إليهم، واعتقاده يرتبط بهم، وقد بذل جهداً في تحصيل تلك العلوم القدسية، ولذا فقد جاء تفسيره "مواهب الرحمن" حافلاً بالمواهب السنية، وعوداً لأسس التفسير التي تأخر تدوينها بشكل مستقل، وإن ذكرت في مقدمات الكتب التفسيرية، وكتب علوم القرآن، فإن السيد السبزواري "قدس سره" وإن ذكرها باقتضاب في مقدمة تفسيره؛ إلا أنه جسّد هذه الأسس في أدائه التفسيري، وقد سلط البحث الضوء على انضباط ذلك الأداء على وفق تلك الأسس فوجدها قائمة في شواهد عمله. نسأله تعالى أن يزيد في حسنات السيد المقدس السبزواري، ويجعل عملنا هذا بعين القبول، إنه أكرم مسؤول.

الهوامش :

١ ـ ظ: محمد حسين علي الصغير-نظرات معاصرة: ٤٨.
٢ ـ ظ: الباحث الأداء المنهجي في تفسير آيات الأحكام: ٢٢-٢٣.
٣ ـ ظ: عبد الإله حوري الحوري-أسباب اختلاف المفسرين في تفسير آيات الأحكام:٣٥.
٤ ـ عدي جواد علي -الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني: ٣١، وانظر مصدره: الراغب الأصفهاني-مقدمة جامع التفاسير- مقدمة المحقق-: ١٣.
٥ ـ الطوفي- الإكسير في قواعد التفسير: ١.
٦ ـ الأزهري -تهذيب اللغة:٩٦/١٣.
٧ ـ ظ: ابن فارس-معجم مقاييس اللغة : ١ / ١٤.
٨ ـ ظ: الجوهري - الصحاح:٣ / ٩٠٣+ ابن منظور - لسان العرب:٦ / ٦.
٩ ـ ظ: خالد بن عثمان السبت-قواعد التفسير:٢٢/١.
١٠ ـ سورة التوبة : ١٠٨.
١١ ـ سورة التوبة : ١٠٩.
١٢ ـ أبو هلال العسكري- الحث على طلب العلم:٤٩/١.
١٣ ـ الراغب-المفردات في غريب القرآن:٣٢/١+ عبد الرؤوف المناوي- التوقيف على مهمات التعاريف:١٠٣/١.
١٤ -عدي جواد علي- الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني: ١٠
١٥ ـ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة:١٨ / ٧١.
١٦ ـ ابن الأثير - النهاية في غريب الحديث:١/ ٤٤٤.
١٧ ـ الشريف المرتضى-الآيات الناسخة والمنسوخة:٤٧+الحر العاملي -وسائل الشيعة (آل البيت) : ٢٧ / ٢٠٠ - ٢٠١+ الحر العاملي- الفصول المهمة في أصول الأئمة : ١ / ص ٥٩٧+ المجلسي- بحار الأنوار : ٨٩ / ٧٢.
١٨ ـ الشريف المرتضى-الآيات الناسخة والمنسوخة: ٤٨.
١٩ ـ مواهب الرحمن: ٤/١.
٢٠ ـ مواهب الرحمن: ٥/١.
٢١ ـ سورة الأحقاف:١٢.
٢٢ ـ الباحث-الأداء المنهجي في تفسير آيات الأحكام: ٣٤-٣٥.
٢٣ ـ ظ: مواهب الرحمن: ٥/١.
٢٤ ـ مواهب الرحمن: ٤/١.
٢٥ ـ سورة الواقعة:٧٩-٧٧.
٢٦ ـ مواهب الرحمن: ٥/١.
٢٧ ـ سورة آل عمران:٧.
٢٨ ـ الراغب الأصفهاني-المفردات: ١٧
٢٩ ـ مواهب الرحمن: ٦١/١
٣٠ ـ سورة آل عمران: ٤٤.
٣١ ـ مواهب الرحمن: ٣٦٢/٥.
٣٢ ـ سورة البقرة: ٥٨.
٣٣ ـ مواهب الرحمن: ٣٥٠/١.
٣٤ ـ سورة آل عمران: ١٩٠.
٣٥ ـ مواهب الرحمن: ٧/ ١٦٨.
٣٦ ـ سورة آل عمران: ١٩.
٣٧ ـ مواهب الرحمن: ١٦٩/٥.
٣٨ ـ سورة المائدة: الآية ٧٥.

٣٩ - سورة البقرة: الآية ٢٣٧.
٤٠ - الصدوق-عيون أخبار الرضا: ١٨٠.
٤١ - ظ:مواهب الرحمن: ٨٧/٥.
٤٢ - ظ: محمد حسين علي الصغير-المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم:٦١.
٤٣ - ابن أبي الحديد -شرح نهج البلاغة:٢٨٧/٨.
٤٤ - سورة الأنعام: ٨٢.
٤٥ - سورة لقمان: ١٣.
٤٦ - ظ: السيوطي - الإتقان:٩٠/٢.
٤٧ - ظ: محمد علي الصابوني-روائع البيان: ١١.
٤٨ - سورة الأنعام: ١٥٢.
٤٩ - ظ: الكيا الهراسي-أحكام القرآن: ٧/٣+الأردبيلي-زبدة البيان: ٣٩٦.
٥٠ - سورة المطففين: ١-٦.
٥١ - سورة الإسراء: ٣٥.
٥٢ - ظ: محمد أمين الشنقيطي-أضواء البيان: ٥٤٨/١.
٥٣ - سورة الأنعام: ١٥٢.
٥٤ - سورة النساء: ٦.
٥٥ - ظ: الجصاص-أحكام القرآن: ٢٦٣/٢+ ابن العربي- أحكام القرآن: ٣/ ١٩٨+ القرطبي- الجامع لأحكام القرآن:٧/ ١٣٤+ الكيا الهراسي-أحكام القرآن: ٣/ ١١٢+ محمد أمين الشنقيطي-أضواء البيان:٥٤٥/١.
٥٦ - سورة البقرة: ٥٦.
٥٧ - سورة المائدة: ٣١.
٥٨ - سورة الحج: ٧.
٥٩ - سورة البقرة: ١٢٩.
٦٠ - سورة المائدة: ١١٠.
٦١ - مواهب الرحمن: ٣٤٦/١-٣٤٧.
٦٢ - سورة البقرة: ١١٤.
٦٣ - مواهب الرحمن: ٥٥٨/١-٥٥٩.
٦٤ - مواهب الرحمن: ٥٥٩/١.
٦٥ - ظ: المصدر نفسه.
٦٦ - سورة آل عمران: ٧.
٦٧ - مواهب الرحمن: ٣٩/٥-٨٦.
٦٨ - سورة آل عمران: ١٤٠.
٦٩ - سورة النساء: الآية ١٢٥.
٧٠ - مواهب الرحمن: ٣٦٩/٦.
٧١ - مواهب الرحمن: ٣٦٩/٦.
٧٢ - الميزان : ٤ / ٢٩.
٧٣ - مواهب الرحمن: ٣٦٩/٦-٣٧٠.
٧٤ - ظ: الطوسي – التبيان: ٢ / ٦٠٢+ الطبرسي-مجمع البيان: ٢/ ٤٠٠+ الراوندي-فقه القرآن: ١ / ٣٥٣.

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.
ابن أبي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد (ت٦٥٦هـ)
١-شرح نهج البلاغة ،تحقيق : محمد أبو الفضل- ط٢- دار إحياء الكتب العربية-البابي الحلبي- ١٩٦٢م.
ابن الأثير: مجد الدين بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ).
٢-النهاية، في غريب الحديث والأثر،تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي- ط٤- قم.
ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله (ت٥٤٣هـ).
٣- أحكام القرآن.تحقيق: محمد عبد القادر عطا،طبع ونشر: دار الفكر للطباعة والنشر
ابن فارس احمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت ٣٩٥ هـ).
٤-معجم مقاييس اللغة ،تحقيق عبد السلام محمد هارون- ط١دار إحياء الكتاب العربي١٣٦٦هـ القاهرة.
ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي المصري(ت٧١١هـ).
٥-لسان العرب ،طبع دار أحياء التراث العربي. منشورات: مؤسسة أدب الحوزة - ١٤٠٥هـ.
أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل (ت بعد ٣٩٥ هـ).
٦-الحث على طلب العلم ،تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين- ط١- ١٤١٢هـ - قم.
الأردبيلي: أحمد بن محمد الشهير بالمقدس الأردبيلي (٩٩٣هـ)
٧-زبدة البيان، في أحكام القرآن ،تحقيق: محمد الباقر البهبودي.
المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية - طهران
الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ).
٨- تهذيب اللغة ،موقع الوراق- alwarraq.com.
حسن كاظم أسد
٩- الأداء المنهجي في تفسير آيات الأحكام ،رسالة دكتوراه- كلية الفقه- جامعة الكوفة-٢٠٠٩ م.
الجصاص: أحمد بن علي الرازي (ت ٣٧٠ هـ).
١٠- أحكام القرآن ،تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين- دار الكتب العلمية-ط١-١٤١٥هـ - بيروت.
الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ).
١١-الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية ،تحقيق أحمد عبد الغفور - دار العلم للملايين - ط٤ - ١٤٠٧ هـ - بيروت.
خالد بن عثمان السبت
١٢- قواعد التفسير، جمعا ودراسة ،دار ابن عفان- المملكة العربية السعودية -١٤٢١هـ.
الراغب: أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ).
١٣- مفردات غريب القرآن ،دفتر نشر الكتاب - ط٢- ١٤٠٤هـ.
الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ).
١٤- مقدمة جامع التفاسير- مقدمة المحقق ،تحقيق: أحمد حسن فرحات
دار الدعوة - الكويت

الراوندي: هبة الله بن سعيد "القطب الراوندي" (ت٥٧٣هـ).
١٥- فقه القرآن ،تحقيق: أحمد الحسيني
منشورات: مكتبة المرعشي العامة- ط٢- ١٤٠٥هـ - قم.
السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت٩١١هـ).
١٦- الإتقان، في علوم القرآن ،تحقيق: سعيد المندوب- ط :١- ١٤١٦ – طبع ونشر: دار الفكر- لبنان
الشريف الرضي : محمد بن الحسين بن موسى الموسوي(ت ٤٠٦ هـ).
١٧- الآيات الناسخة والمنسوخة ،مطبعة المعارف -١٣٧٥ هـ - بغداد
الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ).
١٨- أضواء البيان، في إيضاح القرآن ،تحقيق: مكتب البحوث والدراسات- دار الفكر للطباعة والنشر-١٤١٥هـ بيروت.
الصدوق: محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ).
١٩- عيون أخبار الرضا ،تحقيق: حسين الأعلمي
مؤسسة الأعلمي -١٤٠٤ هـ - بيروت.
الطبرسي : أبو علي الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ).
٢٠- مجمع البيان في تفسير القران ،تحقيق لجنة من العلماء والمحققين - ط١- مؤسسة الأعلمي- ١٤١٥هـ بيروت.
الطوسي: محمد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ).
٢١- التبيان ،تحقيق أحمد حبيب قصير - دار إحياء التراث العربي- ط١- بيروت - ١٤٠٩هـ.
الطوفي: سليمان بن عبد الله ابن عبد القوى عبد الكريم (ت٧١٦هـ).
٢٢- الإكسير في علم التفسير ، أو الإكسير في قواعد التفسير ،تحقيق: عبد القادر حسين- منشورات مكتبة الآداب - القاهرة.
عبد الأعلى السبزواري
٢٣- مواهب الرحمن ط٥- ،مطبعة نكين-١٤٣١هـ
عبد الإله حوري الحوري
٢٤- أسباب إختلاف المفسرين في تفسير آيات الأحكام ، رسالة ماجستير - جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – قسم الشريعة الإسلامية- ١٤٢٢ هـ
عدي جواد علي
٢٥- الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني ، رسالة دكتوراه - جامعة الكوفة- كلية الفقه- ٢٠٠٩م
القرطبي: أبو عبد محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ).
٢٦- الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: سالم مصطفى البدري- دار الكتب العلمية- بيروت.
الكيا الهراسي: علي بن محمد بن علي، الملقب بعماد الدين (ت ٥٠٤ هـ)
٢٧- أحكام القرآن المكتبة الشاملة- قرص ليزري.
محمد حسين علي الصغير
٢٨- المبادئ العامة لتفسير القرآن: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق. منشورات دار المؤرخ العربي ، بيروت. لبنان.الطبعة الأولى. ١٤٢٠ هـ.
محمد حسين علي الصغير:نفسه.
٢٩- نظرات معاصرة في القرآن الكريم ،منشورات دار المؤرخ العربي- ط١-بيروت - ١٤٢٢ هـ.

محمد علي بن جميل الصابوني .
٣٠- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن ،مكتبة الغزالي- دمشق-مؤسسة مناهل العرفان- بيروت- ط٥-١٤٠٧هـ.